

أروقة الحرم الشريف

لم تسعفنا المصادر التاريخية بإعطائنا وصفاً لأروقة الحرم الشريف في الفترات الإسلامية المبكرة، باستثناء الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار المسجد الأقصى قبل الاحتلال الصليبي له، والذي أشار إلى وجود رواق في الجهة الشرقية للحرم الشريف^(١)، ولكنه تهدم واندثر جراء الهزات الأرضية التي حدثت في القدس. ولكننا اليوم أمام رواقين قائمين في الجهتين الشمالية والغربية للحرم الشريف والذين من المحتمل أن يكونا قد أقيما على أساسات أروقة الحرم الشريف الأصلية والقديمة التي تعود للفترات الإسلامية المبكرة. وقد عرفا بالرواقين: الشمالي والغربي. وقد أقيمت الأروقة لغرضي الصلاة والتدريس، حيث يتقي المصلون والدارسون تحتها من حرارة الشمس في أيام الصيف والأمطار الغزيرة في أيام الشتاء.

الرواق الشمالي

وهو الذي يقوم في الجهة الشمالية للحرم الشريف ممتداً من الشرق إلى الغرب، والذي يتألف من عقود حجرية تقوم على دعائم حجرية متتابعة غطيت بسلسلة من الأقبية المتقاطعة، وقد تخللها ثلاثة من أبواب الحرم الشريف وهي باب الأسباط وباب حطة وباب العتم، إضافة إلى مئذنة باب الأسباط.

وقد تم إنشاء وتعمير هذا الرواق في الفترة الواقعة ما بين (٦١٠ - ٧٦٠ هجرية / ١٢١٣ - ١٣٥٨ ميلادية)، حيث تم تعمير قسم منه في الفترة الأيوبية في عهد السلطان الملك المعظم عيسى، وهو القسم الذي يقع ما بين باب العتم والمدرسة الفارسية وذلك حسب ما ورد في النقش التذكاري الموجود قرب باب العتم^(٢).

وأما بقية الرواق فقد تم إنشاؤه على مراحل متتابعة في الفترة المملوكية، كما وبني فيه وفوقه مجموعة من المدارس الدينية المملوكية والتي أكسبته رونقاً وجمالاً من خلال واجهاتها المعمارية التي تعكس التطور المعماري للحرم الشريف في الفترة المملوكية.

وقد بلغت المدارس الدينية التي احتضنت في قلب هذا الرواق والقائمة فيه وعليه حتى يومنا هذا تسع مدارس وسنوردها بالترتيب من الشرق إلى الغرب كالآتي^(٣):

١) المدرسة الغادرية: (دليل الموقع - ١٦)

الواقعة بين باب حطة وباب الأسباط، والتي بنيت في عهد السلطان الأشرف بارسبای في سنة ٨٣٦ هجرية، على يدي «مصر خاتون» زوجة الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر.

وتقوم اليوم دائرة الأوقاف الإسلامية بترميمها لتكون صالحة لاستخدامها كمكاتب لها.

٢) المدرسة الكريمة: (دليل الموقع - ١٧)

الواقعة بباب حطة، والتي بنيت في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والتي أوقفت على يدي صاحب كريم الدين بن عبد الكريم بن المعلم هبة الله في سنة ٧١٨ هجرية وتعرف اليوم بدار جار الله الذين ما زالوا يربطون فيها.

٣) المدرسة والتربة الأوحدية: (دليل الموقع - ١٨)

الواقعة بباب حطة إلى الشرق من المدرستين الدوادارية والباسطية. وقد أوقفها الملك الأوحى نجم الدين يوسف بن الملك الناصر صلاح الدين في سنة ٦٩٧ هجرية / ١٢٩٨ ميلادية وتعتبر أقدم نموذجاً للترب (جمع تربة) الأيوبية التي أقيمت في الفترة الأيوبية وبخاصة في الرواق الشمالي للحرم الشريف .

٤) المدرسة الباسطية : (دليل الموقع - ١٩)

الواقعة فوق الرواق مقابل المدرسة الدوادارية. وقد أوقفت على يدي القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي في سنة ٨٣٤ هجرية / ١٤٣١ ميلادية، هذا ويستخدم قسم منها اليوم كمدرسة (مدرسة البكرية للبنين) والقسم الآخر كبيت سكن لإحدى العائلات المقدسية .

٥) المدرسة الدوادارية : (دليل الموقع - ٢٠)

الواقعة بباب العتم والتي بنيت وأوقفت على يدي الأمير علم الدين أبو موسى سنجر الدوادار (أي صاحب دواة السلطان وهو ما يعادل السكرتير الخاص به) وذلك في سنة ٦٩٥ هجرية / ١٢٩٥ ميلادية، وهي اليوم مقراً للمدرسة البكرية الابتدائية للبنات .

٦) المدرسة الأمينية : (سيأتي تفصيلها)

٧) المدرسة الفارسية : (سيأتي تفصيلها)

٨) المدرسة الملكية : (سيأتي تفصيلها)

٩) المدرسة الاسعدية : (دليل الموقع - ٢٤)

الواقعة فوق الرواق إلى الغرب من المدرسة الملكية. وقد أوقفت على يدي مجد الدين أبي بكر بن يوسف الأسعدي في سنة ٧٦٠ هجرية / ١٣٥٩ ميلادية، وتستخدم اليوم كدار للسكن حيث يربط فيها جماعة من آل البيطار .

هذا وقد ذكر مجير الدين ثلاثة مدارس أخرى كانت تقوم فوق القسم الشرقي من الرواق الشمالي للحرم الشريف وتهدمت وأزيلت مع مرور الزمن، وهي الحسنية والطولونية والفنارية^(٤) .

وقبل البدء بشرح بعض النماذج من هذه المدارس المذكورة أعلاه، لا بد لنا من عرض بعض الحقائق العلمية والأثرية (المعمارية) التي تخص عمارة المدارس المملوكية بالقدس والحرم الشريف وهي :

١- امتازت المدارس المملوكية بواجهاتها الرئيسية التي حددت الحدود الخاصة لكل مدرسة على حدة وذلك من خلال الإطار المميز المحيط بها .

٢- اشتمل مخطط الطابق الأرضي للمدرسة المملوكية بشكل عام على : المدخل الرئيسي الذي يؤدي إلى الدركاة التي كانت عبارة عن (موزع) تؤدي إلى غرفة الضريح في جانب والغرفة المقابلة، (والتي من المحتمل أنها كانت للحراسة)، في الجانب الآخر ومن ثم يدخل إلى الساحة المكشوفة التي تتوسط المدرسة والمحاطة بالغرف الصغيرة (الخلاوي للتعبد / جمع خلوة) وفي بعض الأحيان يكون الايوان المفتوح في صدر الساحة المكشوفة والمحاط بغرفتين من كل جانب مثل ذلك في المدرستين الجوهرية والمزهرية^(٥) .

وأما الطابق الأول الذي يصعد إليه من خلال السلم الحجري الواقع في زاوية ما في الطابق الأرضي، فيتألف في معظم الأحيان من الممرات المكشوفة التي تؤدي إلى الغرف والخلاوي المحيطة بها على غرار الخلاوي الواقعة في

الطابق الأرضي، هذا وتجدر الإشارة هنا إلى وجود بعض الاختلافات من مدرسة إلى أخرى بشكل طفيف وليس جوهرياً.

٣- تميزت عمارة المدارس المملوكية بعناصر معمارية نذكر منها :

- أ) الواجهة المعمارية التي تعتبر مفتاح المبنى يحد ذاته .
 - ب) الإطار الحجري المزخرف أو المنحوت الذي يحدد الواجهة الرئيسية ومن ثم المعلم نفسه .
 - ج) استعمال الحجارة الملونة وخاصة اللونين الأحمر والأبيض (المشهر) وذلك بترتيبها بصفوف (مداميك) حجرية متناوبة: أحمر أبيض... وهكذا.. وكذلك استخدام الحجارة ذات اللون الأسود .
 - د) استعمال صفوف المقرنصات الهندسية المزخرفة وبخاصة فوق المدخل الرئيسي للواجهة الرئيسية في أعلى القوصرة، وكذلك استعمال الصنج المعشقة المشهورة .
 - هـ) استعمال اللوحات الزخرفية النباتية والهندسية وبخاصة فوق شبابيك غرف الضريح والمدخل الرئيسي .
 - و) استعمال الشريط الكتابي (النقش التذكاري) الذي يعتبر وثيقة تاريخية وأثرية في تدقيق الأثر نفسه حيث يعطينا اسم مؤسس المبنى وتاريخ إنشائه ووظيفته .
 - ز) استعمال المصبغات الحديدية كحماية على الشبابيك الواقعة في الواجهة الرئيسية .
- وقد ارتأينا أن نعرض ثلاثة نماذج من المدارس المملوكية الواقعة في الرواق الشمالي للحرم الشريف وهي :
الألملكية، الفارسية والأمنية .

المدرسة الألملكية : (دليل الموقع - ٢٣)

تقع المدرسة الألملكية في الرواق الشمالي للحرم الشريف بين المدرستين الفارسية من الجهة الشرقية والأسعدية من الجهة الغربية، ويدخل إلى المدرسة من خلال مدخلها الرئيسي الجميل الواقع في الجهة الغربية والذي يتوصل إليه بواسطة السلم الحجري المؤدي لكلتا المدرستين الألملكية والأسعدية .

ويتألف مبنى المدرسة الألملكية من طابقين، الأول والذي يتكون من القاعة الرئيسة الواقعة في الجهة الجنوبية للمبنى وغرفة الضريح المدفون فيه جثمان زوجة الأمير آل ملك الجوكندار والغرف الصغيرة المحيطة بالساحة المكشوفة .

وأما الطابق الثاني فيتكون من عدد من الغرف الصغيرة والكبيرة والتي أضيفت في الفترة العثمانية المتأخرة على يدي مالكيه «آل الخطيب» وذلك لتوسيع المبنى ليتناسب واحتياجات قاطنيه .

هذا وتمثل عمارة المدرسة الألملكية متحفاً للعمارة المملوكية في القدس حيث اشتملت على معظم العناصر المعمارية المملوكية والتي تجلت في واجهتها الرئيسية ومدخلها الرئيسي من خلال استخدام الحجارة المشهورة (الملونة باللونين الأحمر والأبيض المتتاليين) و صفوف المقرنصات المزخرفة والصنج المعشقة والنقش التذكاري الذي يشير إلى تاريخ عمارتها والرنوك (الشعارات) السلطانية التي تحف به من الجانبين والتي تشير إلى شعار الأمير جوكندار المتمثل بالعصا التي يحملها لاعب الكرة (البولو) حيث كان الحاج آل ملك مسؤولاً عن حمل عصا الملك الناصر محمد أثناء اللعب ومن هنا جاء لقبه بالجوكندار "Polo Mastes" .

وأما من الداخل، فلم يقل مستوى استخدام العناصر المعمارية والزخرفية عن المستوى الذي استخدم في



قبة الأرواح



قبة يوسف آغا



سبيل البديري

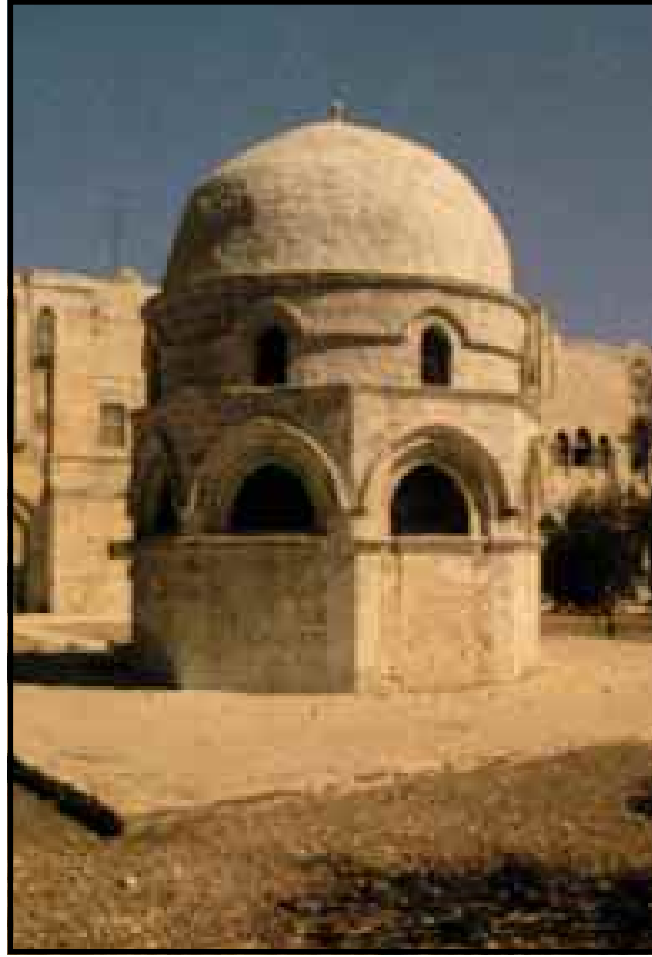


المتحف الاسلامي



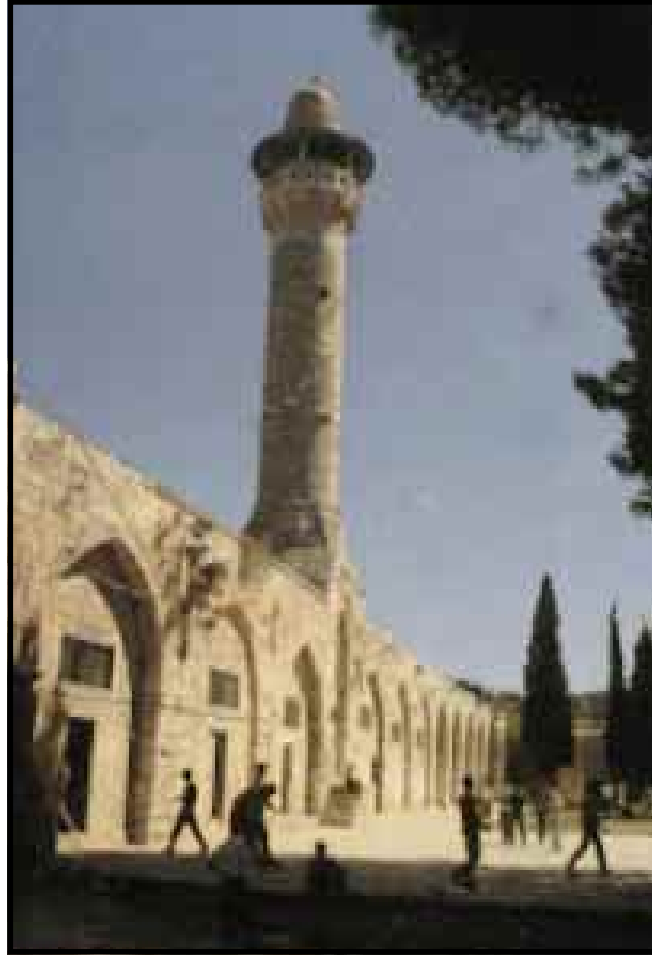
سبیل شعلان





قبة سليمان





الرواق الشمالي



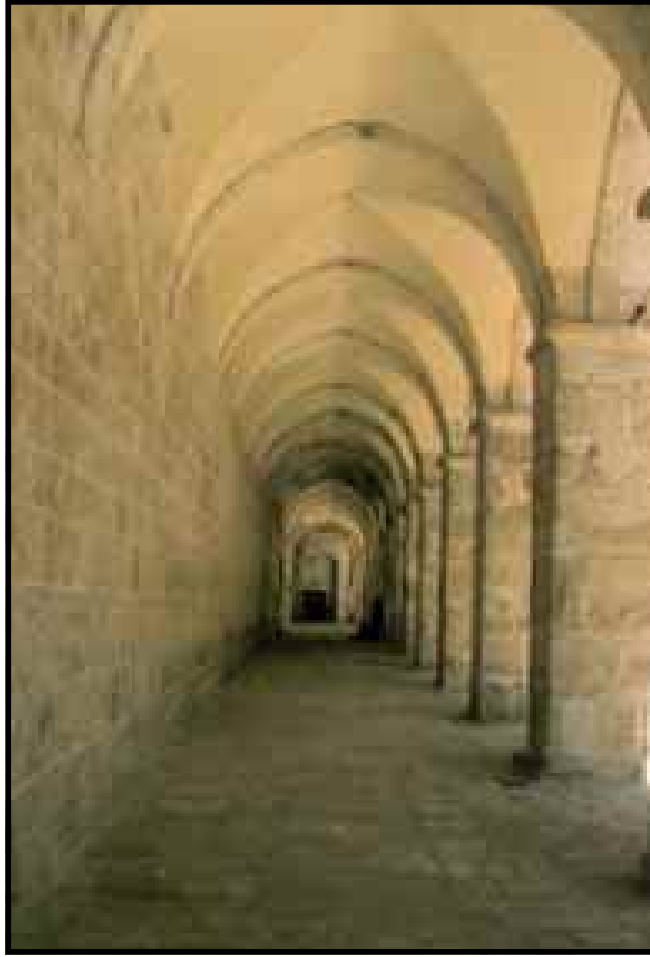
قبة أو ايوان العشاق



سبيل السلسلة



مقام ومسجد سيدنا سليمان



الأروقة الغربية





قبة الخضر





باب المغاربة



القنطرة الغربية



المدرسة العثمانية



القنطرة الشمالية الغربية



المدرسة الأشرفية





باب القطنين



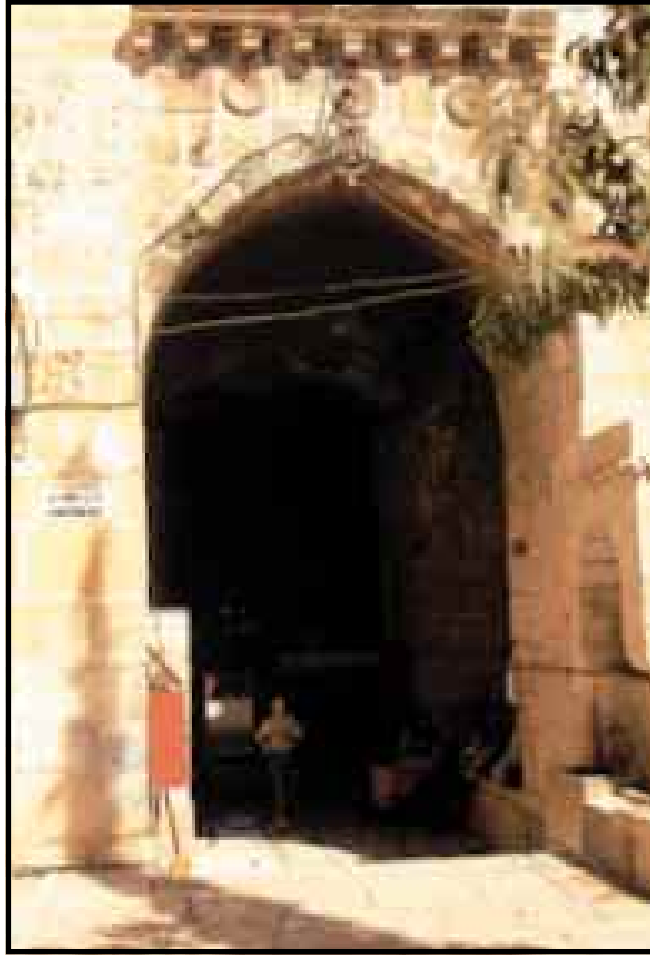
القنطرة الشمالية



قبة موسى



البائكة الشرقية



باب حطة



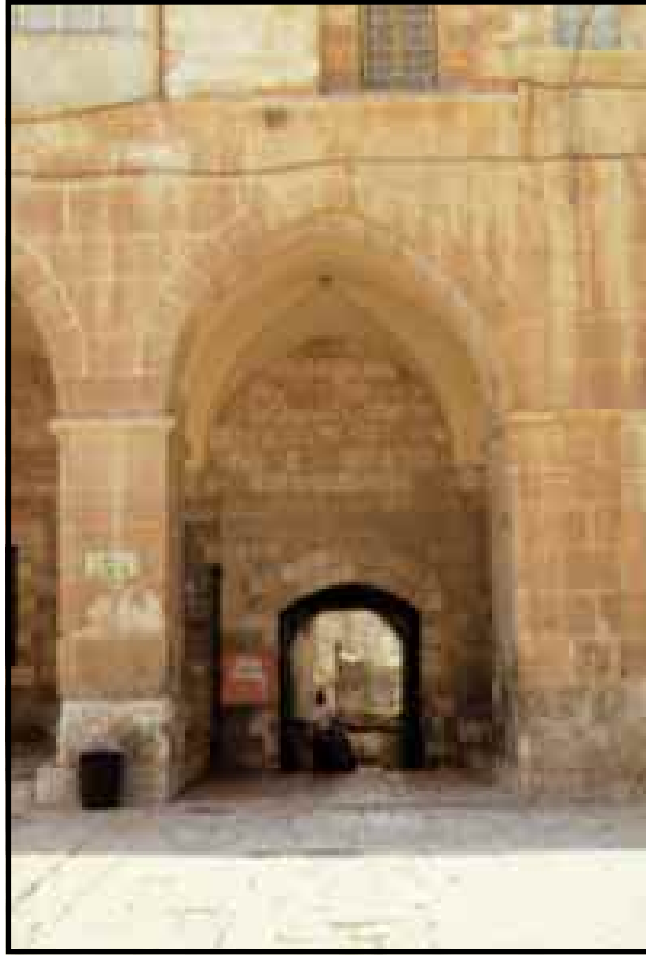
المدرسة الغادرية



المدرسة الأرغونية



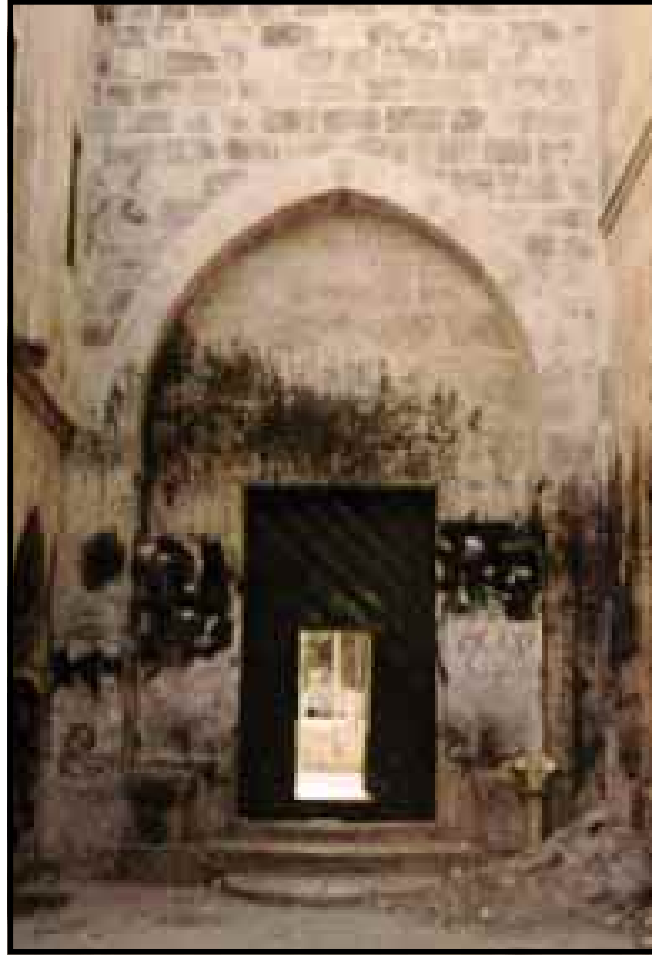
المدرسة الأسعدية



باب المطهرة



القنطرة الجنوبية



باب الحديد



القنطرة الجنوبية



مسطبة قبة أو ايوان العشاق



بابي التوبة والرحمة (الباب الذهبي)



باب العتم



المدرسة العثمانية



بابي السلسلة والسكينة



القنطرة الجنوبية الغربية



المدرسة الأرغونية



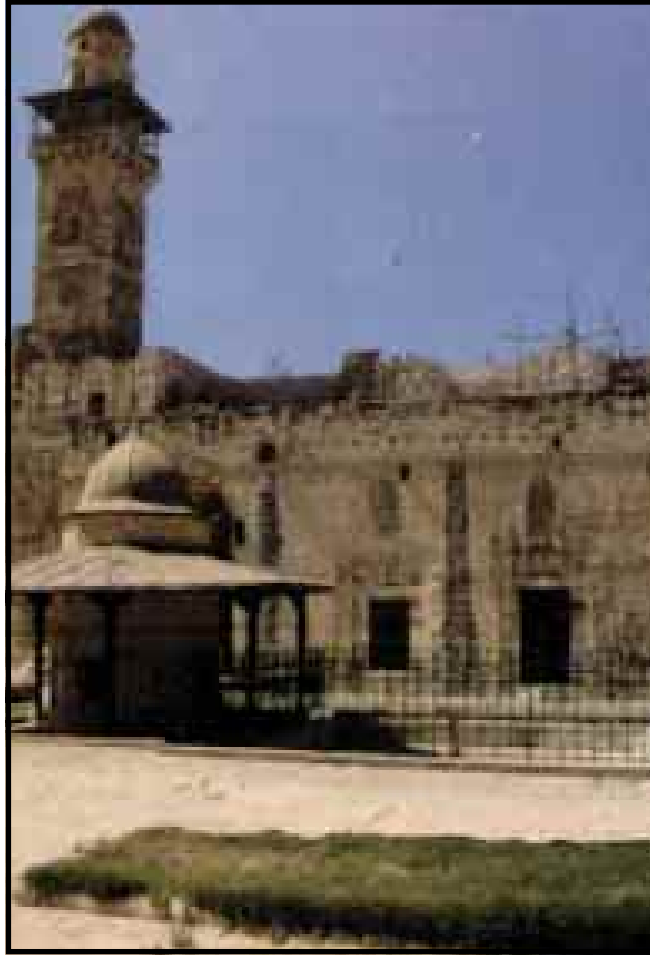
المدرسة الجاولية



مئذنة باب الغوانمة



المدرسة الغادرية



مكتبة الأقصى



المدرسة الغادرية



مئذنة باب المغاربة



القنطرة الشرقية



قبة المعراج



قبة السلسلة



سبيل السلسلة



الكأس



مئذنة السلسلة



سبيل قاسم باشا



قبة الخضر



قبة الصخرة المشرفة



قبة الأرواح



قبة الشيخ الخليلي



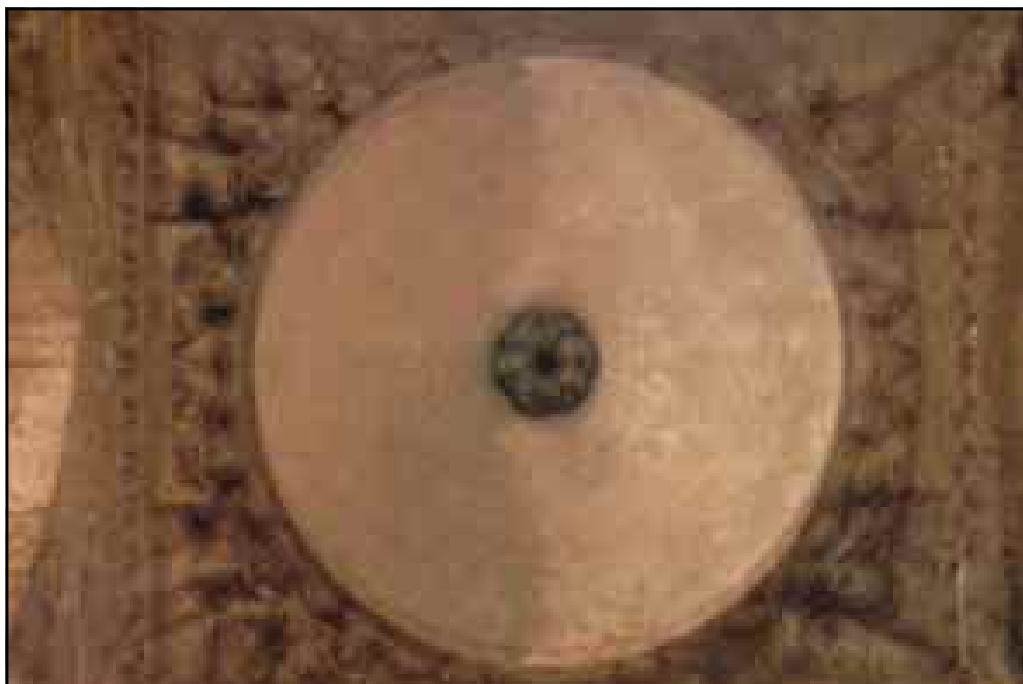
قبة يوسف



مسطبة



سبيل باب العتم





سبيل قايتبای



منبر برهان الدین

الواجهتين المذكورتين، فقد حافظ المعماري المملوكي على نسيج واحد متكامل ومتجانس سواء في داخل مبنى المدرسة أو خارجها وذلك ليعكس مدى جمال وتناسق الزخم المعماري المملوكي في الحرم الشريف .

تاريخ المبنى :

قام بإنشاء المدرسة الأملكية والتي تعرف أيضاً باسم «مدرسة الجوكندار»، الحاج آل ملك الجوكندار في سنة ٧٤١ هجرية / ١٣٤٠ ميلادية في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون خلال سلطنته الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١ هجرية / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ ميلادية)، وذلك حسب ما يشير إليه النقش التذكاري^(٦) والذي يقوم في واجهتها الرئيسية . وقد كان الأمير الحاج آل ملك الجوكندار من رجالات الدولة المملوكية حيث شغل مناصب متعددة ومهمة فقد كان جوكندارا للملك الناصر محمد بن قلاوون، وكذلك تولى نيابة السلطنة في الديار المصرية في عهد الملك الصالح عماد الدين اسماعيل (٧٤٣ - ٧٤٦ هجرية / ١٣٤٢ - ١٣٤٥ ميلادية)، حتى تم خلعه عنها علي ידי الملك الكامل سيف الدين شعبان (٧٤٦ - ٧٤٧ هجرية / ١٣٤٥ - ١٣٤٦ ميلادية)، وولاية نيابة «صفد» كإهانة له^(٧).

وأما عن وقفية المدرسة، فقد جاء أن زوجة الحاج آل ملك الجوكندار والمعروفة باسم «ملك بنت السيفي قلطقم الناصري» قامت بوقف الأموال اللازمة للصرف على المدرسة ومن المحتمل عمارتها أيضاً من أموالها الخاصة وذلك حسب ما جاء في الوقفية المؤرخة في سنة ٧٤٥ هجرية / ١٣٤٤ ميلادية والتي ذكرها مجير الدين^(٨). وقد قامت زوجة الأمير آل ملك الجوكندار بعمل وقفية أخرى في سنة ٧٥٧ هجرية / ١٣٥٦ ميلادية^(٩)، حيث أوقفت عليها خان الحبالين الواقع بمدينة غزة وجميع الحوانيت السبع الملاصقة للخان .

هذا وقد ظلت المدرسة الأملكية تقوم بدورها الحضاري كمعهد من معاهد العلم في الحرم الشريف في القدس حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري، حيث اشتهر من شيوخها^(١٠) : الشيخ الإمام سراج الدين الحنبلي المتوفي سنة ٧٥٥ هجرية، والشيخ شرف الدين القرقيشندي المقدسي المتوفي سنة ٨٣٦ هجرية، وقاضي القضاة جمال الدين الأنصاري المالكي المتوفي سنة ٨٥٠ هجرية تقريباً، والشيخ علي بن حبيب الله المتوفي سنة ١١٤٤ هجرية .

وتعتبر المدرسة الأملكية وفقاً ذرياً لآل الخطيب الذين يرابطون فيها حتى يومنا هذا .

المدرسة الفارسية : (دليل الموقع - ٢٢)

تقع المدرسة الفارسية فوق الرواق الشمالي للحرم الشريف، بين المدرستين الأمينية والأملكية، ويدخل إلى المبنى الحالي للمدرسة بواسطة مدخل بسيط يقوم تحت الرواق المذكور حيث يؤدي إلى سلم حجري يتوصل من خلاله إلى المبنى نفسه .

ويتألف المبنى من طابق واحد يتكون من ثلاث غرف مربعة الشكل تقريباً ممتدة على صف واحد من الغرب إلى الشرق، إضافة إلى الساحة المكشوفة الصغيرة الواقعة خلف الغرف المذكورة والمحاطة بغرفتين صغيرتين من الجهة الغربية .

تاريخ المبنى :

شاء القدر أن لا يبقى من معالم المدرسة الفارسية الأصلية شيء يؤكد عمارتها التي كانت تتمتع بها، حيث

تكاد أن ندرجها في جدول المعالم المملوكية الدارسة في القدس . ولكن لولا ذكرها في كتب التاريخ لما استطعنا التعرف عليها، حيث تمت الإشارة إليها عند مجير الدين^(١١) ضمن المدارس الواقعة في الرواق الشمالي للحرم الشريف، مشيراً إلى أنه أطلع على الوقفية المؤرخة في الثالث من شعبان سنة ٧٥٥ هجرية والتي تنص على أن واقفها هو الأمير فارس ألبكي بن الأمير قطلو ملك بن عبد الله نائب السلطنة بالأعمال الساحلية والجبلية ونائب غزة، وذلك في عهد السلطان الملك الناصر حسن خلال سلطنته الثانية (٧٥٥ - ٧٦٢ هجرية / ١٣٥٤ - ١٣٦١ ميلادية)، ووقف عليها قسماً من قرية طولكرم (مدينة كبيرة في شمال فلسطين اليوم). ونجد في مصدر آخر ما يدل^(١٢) على أن الأمير المذكور أعلاه قد أنشأ المدرسة الفارسية ووقف عليها نصف أراضي قرية الشويكة قضاء نابلس وذلك في تاريخ ٧٥٣ هجرية / ١٣٥٢ ميلادية، وقد دعيت الفارسية بهذه الوقفية باسم خانقاه (دار للعبادة والتصوف باللغة الفارسية).

ونعتقد بأن المصدر الثاني أدق من مجير الدين، لاعتماد مؤلفه الدكتور العسلي على سجلات المحكمة الشرعية بالقدس.

كما وقام الأمير فارس ألبكي بإنشاء مدرسة بالقاهرة سميت بالفارسية بعد الفارسية بالقدس، وعليه نميل إلى الاعتقاد إلى أن تاريخ عمارة المدرسة الفارسية يعود إلى ما بين ٧٥٠ - ٧٥٣ هجرية.

وقد كانت المدرسة الفارسية معهداً علمياً ساهم في دفع النهضة العلمية والحضارية في القدس، فقد برز من شيوخها القدماء والمحدثين الشيخ زين الدين المتوفي سنة ٨٣٨ هجرية، والمدفون في مقبرة باب الرحمة بالقدس الشريف^(١٣).

هذا وعلى ما يبدو أن عمارة المدرسة الفارسية الأصلية قد تهدمت أثر زلزال حدث في فترة لاحقة (لم تسعفنا الروايات التاريخية بالإشارة إليه)، الأمر الذي جعل العثمانيين يعيدون بناءها الشكل التي هي عليه الآن. وتشير السجلات الوقفية إلى استمرارية استخدام المبنى كمدرسة وسكن لشيوخها بنفس الوقت في الفترة العثمانية، والذين نذكر منهم^(١٤):

الشيخ طه بن صالح المكنى بأبي الرضا الديري المقدسي الحنفي المتوفي سنة ١٠٧١ هجرية، والذي سكن المدرسة الفارسية ودرس فيها، والشيخ فتح الله بن طه (الخالدي) الديري الذي عين شيخاً بالفارسية في سنة ١٠٧٧ هجرية، وكذلك الشيخ موسى بن محمود الخالدي الذي درس فيها سنة ١١٢٤ هجرية.

ونخلص بالقول إلى أننا أمام معلم أثري مهم ذو تاريخ ووقف إسلامي عام يعود للفترة المملوكية، وعمارة عثمانية طالما لعب دوراً فعالاً في نهوض الحركة العلمية والحضارية في القدس الشريف.

والمبنى اليوم يسكنه جماعة من آل الدجاني كانوا قد استأجروه من دائرة الأوقاف الإسلامية على اعتبار أنه وقف إسلامي عام.

المدرسة أو الزاوية الأمينية: (دليل الموقع - ٢١)

تقع المدرسة أو الزاوية الأمينية بقرب باب العتم بالنسبة للطابقين الأرضي والأول منها، وفوق الرواق الشمالي للحرم الشريف إلى الشرق من المدرسة الفارسية بالنسبة إلى الطابقين الثاني والثالث منها، ويتألف مبنى المدرسة الأمينية من أربعة طوابق: الأرضي والأول والثاني والثالث. ويتكون الطابق الأرضي من المدخل الرئيسي الذي

يطل على طريق باب العتم والدركاه (الموزع) المؤدية إلى غرفة الضريح والايوان والصحن المكشوف الذي يتوسطه حوض ماء مربع الشكل، وقد كان الطابق الأرضي يستخدم للتدريس.

وأما الطابق الأول فهو عبارة عن أربعة غرف مربعة الشكل تقريباً تقوم في الجهة الجنوبية منه إضافة إلى الدهاليز (الممرات المقبية) المحيطة بالمنور والذي على ما يبدو أنه قد تم تغطيته في فترة لاحقة (الفترة العثمانية) ومجموعة من الغرف الصغيرة التي تقوم في الجهة الشمالية للطابق الأول. ويصعد إلى الطابق الثاني من خلال السلم الحجري المؤدي إلى الساحة المكشوفة التي تتقدم الغرف والقاعة الرئيسية المطلّة على ساحة الحرم الشريف، وأما الطابق الثاني فيتألف من غرف صغيرة وكبيرة تقوم في الجهتين الشمالية والجنوبية للساحة المكشوفة.

تاريخ المبنى:

قام بإنشاء المدرسة أو الزاوية الأمينية صاحب أمين الدين عبد الله سنة ٧٣٠ هجرية / ١٣٢٩ ميلادية في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون خلال سلطنته الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١ هجرية / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ ميلادية)، حيث تم ذكرها عند المؤرخين مثل ابن فضل الله العمري^(١٥) وكذلك مجير الدين الحنبلي^(١٦).

ومن خلال زيارتنا للموقع فقد اتضح لنا أن المبنى قد مر بمرحلتين تاريخيتين متعاقبتين في الفترة المملوكية وهي فترة التأسيس والفترة العثمانية وهي فترة الترميمات والإضافات.

وتتمثل الفترة المملوكية بالطابق الأرضي والأول والقسم الجنوبي من الطابق الثاني والذي يقوم على الرواق الشمالي للحرم الشريف والمطل على ساحته من خلال واجهته التي زينت بالشبابيك الجميلة ذات العناصر المعمارية المملوكية حيث تكتنف هذه الواجهة في داخلها الدركاه والقاعة الرئيسية والغرفة المجاورة لها من الجهة الشرقية.

وعلى ما يبدو فإن المبنى قد تهدم إثر الهزة الأرضية التي حدثت في سنة ٩٥٢ هجرية / ١٥٤٦ ميلادية^(١٧) مما ترتب عليه عمل ترميمات وإضافات في الفترة العثمانية ما بين القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين. ولقد لعبت المدرسة الأمينية دوراً هاماً في تنشيط الحركة العلمية والحضارية في القدس الشريف، حيث اشتهر من شيوخها وناظرها في الفترة المملوكية الشيخ إبراهيم بن أبي بكر الموصلي^(١٨) والذي تم تعيينه وفق مرسوم سلطاني موقع من نائب السلطنة في دمشق حسب ما كان متبعاً في الفترة المملوكية.

وأما في الفترة العثمانية فقد كان حاكم القدس الشرعي الذي يقوم بالتعيينات السلطانية لوظيفتي المشيخة والتدريس في المدرسة الأمينية كما هو الحال في المدارس الأخرى في القدس الشريف، حيث اشتهر من شيوخها في الفترة العثمانية الشيخ عبد الله بن الشيخ يوسف الذي تم تعيينه فيها سنة ١٠٨٠ هجرية، وكذلك الشيخ محمد أسعد الإمام السحيني وعدد من أقربائه الشيوخ الذين عينوا في وظيفة التولية والنظر والمشيخة على المدرسة الأمينية في سنة ١٢٨١ هجرية^(١٩).

وتعتبر المدرسة الأمينية وقفاً ذرياً لآل الامام حيث يسكن فيها حالياً الشيخ أسعد الامام الذي حرص على الحفاظ عليها والمرابطة فيها أسوة بأجداده الذين سبقوه والمدفونين في غرفة الضريح الواقع في الطابق الأرضي للمدرسة، نذكر منهم^(٢٠): جدهم الأكبر ضياء الدين محمد أبو عيسى الهكاري والشيخ عبد الرحيم الامام وكذلك الشيخ محمد شمس الدين الامام وغيرهم.

الرواق الغربي

وهو الذي يقوم في الجهة الغربية للحرم الشريف ممتداً من الشمال (باب الغوانمة) إلى الجنوب (باب المغاربة)، والذي يتألف من سلسلة عقود حجرية أقيمت على دعائم حجرية متتابعة، غطيت بسلسلة من الأقبية المتقاطعة، والذي تخللها أبواب الحرم الشريف السبعة ومئذنتي باب الغوانمة وباب السلسلة.

وقد تم إنشاء هذا الرواق في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون خلال فترة سلطنته الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨ هجرية / ١٢٩٩ - ١٣٠٩ ميلادية) والثالثة (٧٠٩ - ٧٤١ هجرية / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ ميلادية)، والذي قام بتعميره على فترات متتابعة ما بين (٧٠٧ - ٧٣٧ هجرية / ١٣٠٧ - ١٣٣٦ ميلادية)، حيث تم إنجاز القسم الأول منه (الشمالي) في سنة ٧٠٧ هجرية وذلك حسب النقش التذكاري الموجود بباب الناظر^(٢١).

والقسم الثاني (الجنوبي) في سنة ٧١٣ هجرية / ١٣١٣ ميلادية وذلك حسب النقش التذكاري الموجود بباب السلسلة والذي جاء فيه ما نصه^(٢٢):

«بسم الله الرحمن الرحيم أنشئ هذا الرواق / في أيام مولانا السلطان الملك الناصر الدنيا / والدين محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون أعز الله / أنصاره بنظر الأمير شرف الدين موسى بن حسن الهدباني في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة».

وأما القسم الأوسط فقد تم إنشاؤه في سنة ٧٣٧ هجرية / ١٣٣٦ ميلادية وهو تاريخ إنشاء باب القطانين^(٢٣) الذي هو جزء لا يتجزأ من القسم الأوسط من الرواق.

ومن الجدير بالإشارة إلى أنه قد جرى على الرواق الغربي بكامله ترميمات وإصلاحات عديدة في الفترة العثمانية.

وتقوم في الرواق الغربي فضلاً عن الأبواب والمآذن، خمس من المدارس الدينية والتي جاءت على الترتيب من الشمال إلى الجنوب كآتي^(٢٤):

١) المدرسة المنجقية: (دليل الموقع - ٢٥)

الواقعة باب الناظر فوق الرواق الغربي للحرم الشريف والتي تم إنشاؤها على يدي الأمير سيف الدين منجك في سنة ٧٦٢ هجرية / ١٣٦١ ميلادية، وهي اليوم مقر دائرة الأوقاف الإسلامية العامة.

٢) المدرسة الأرغونية: (دليل الموقع - ٢٦)

الواقعة بباب الحديد (باب أرغون) في الرواق الغربي للحرم الشريف والتي تم إنشاؤها على يدي الأمير أرغون الكامل في سنة ٧٥٩ هجرية / ١٣٥٨ ميلادية وأكملت عمارتها على يدي الأمير ركن الدين بيبرس السيفي في نفس التاريخ، وتعرف اليوم بدار العفيفي.

٣) المدرسة الخاتونية: (دليل الموقع - ٢٧)

الواقعة إلى الجنوب من المدرسة الأرغونية، والتي أنشأتها وأوقفها السيدة أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية في سنة ٧٥٥ هجرية / ١٣٥٤ ميلادية ثم أكملت عمارتها على يدي السيدة أصفهان شاه بنت الأمير قران شاه في سنة ٧٨٢ هجرية / ١٣٨٠ ميلادية، وتعتبر هذه المدرسة إحدى المدارس التي أنشئت على يدي بنات الأمراء والسلاطين في القدس والتي لم يتعدى عددها عن الثلاث مدارس،

وتعرف اليوم بدار الخطيب .

٤) المدرسة العثمانية : (دليل الموقع - ٢٨)

الواقعة بباب المطهرة إلى الشمال من المدرسة الأشرفية فوق الرواق الغربي للحرم الشريف والتي تم إنشاؤها ووقفها على يدي السيدة أصفهان شاه خاتون ابنة الأمير محمد الشهيرة بخانم وذلك في سنة ٨٤٠ هجرية / ١٤٣٧ ميلادية، وتعرف اليوم بدار الفتاني .

هذا وقد ارتأينا أن نعرض المدرسة الأشرفية كنموذجاً للمدارس الواقعة في الرواق الغربي للحرم الشريف، وذلك لما احتوته من زخم معماري وزخرفي الذي جاء ليعكس تطور العمارة المملوكية في القدس .

المدرسة الأشرفية : (دليل الموقع - ٢٩)

لقد وصفت المدرسة الأشرفية بالجوهرة الثالثة في الحرم الشريف، بعد قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك .

تقع المدرسة الأشرفية في الرواق الغربي للحرم الشريف بين بابي السلسلة والمطهرة، حيث يدخل إليها من خلال مدخلها الرئيسي الواقع في الطرف الجنوبي لها والذي تتقدمه قوصرة أو سقيفة ما زالت تبهر الزائرين بعناصرها وزخارفها المعمارية .

يتألف مبنى المدرسة الأشرفية من طابقين: الأرضي والأول، حيث يتكون الطابق الأرضي من المدخل الرئيسي والسقيفة التي تتقدمه والدركاه المؤدية إلى السلم الحجري الذي يتوصل بواسطته إلى الطابق الأول، والقاعة الرئيسية التي فتح في كل من جهتيها الشمالية والشرقية باباً يؤدي إلى ساحة الحرم الشريف، ويقوم إلى الغرب من هذه القاعة وعلى صف واحد أربع من الغرف الصغيرة . ويستخدم الطابق الأرضي جميعه اليوم كمقر لمكتبة المسجد الأقصى المبارك .

وأما الطابق الأول فيتوصل إليه من خلال السلم الحجري المؤدي إلى ساحة مستطيلة الشكل (تقوم فوق المدرسة البادية) والتي تتقدم المدخل الذي كان يؤدي إلى الطابق الأول، حيث نشاهد اليوم بقايا معمارية تشير إلى عناصر هذا المدخل الذي تهدم وأغلق بصورة عشوائية في فترة لاحقة .

ومن خلال البقايا الأثرية والمعمارية للطابق الأول والتي بقيت بعد تهدم المدرسة جراء هزة أرضية عنيفة حدثت في فترة لاحقة يتضح لنا أنه كان يتألف من أربعة أواوين (جمع ايوان) يتوسطها صحناً مفتوحاً (فناء) : الايوان الجنوبي وهو أكبرها وقد توسط في جداره القبلي محراب جميل، والايوان الشمالي والايوان الشرقي الذي يطل على ساحة الحرم الشريف والايوان الغربي المقابل له في الجهة الغربية . هذا وقد جاء وصف الطابق الأول عند مجير الدين بما نصه ^(٢٥) :

« ... وعند انتهاء السلم باب يدخل منه إلى باحة سماوية مفروشة الأرض بالبلاط الأبيض (المقصود المستطيلة الشكل) ، وبصدر هذه الساحة من جهة الشمال باب مربع يدخل منه إلى دركاه لطيفة بها عن يمينه الداخل دهليز (ما زال باقيا) يتوصل منه إلى المدرسة (المقصود الطابق الأول) . وهذه المدرسة العلوية (هي الطابق الأول من المدرسة الأشرفية) تشمل على أربعة أواوين متقابلة : القبلي منها وهو الأكبر بصدره محراب وبجانب المحراب من جهة الشرق شباك كان مطلان على المسجد الشريف (أي المسجد الأقصى المبارك) ومن جهة

الغرب شباكان مطلان على السلم المتوصل منه إلى المدرسة (أي الطابق الأول) وبالاىوان المذكور من جهة الشرق ثلاثة شبابيك مطلة على المسجد (المقصود الحرم الشريف) إلى جهة صحن الصخرة الشريفة ويقابلها ثلاثة شبابيك على صحن المدرسة .

والاىوان الشمالي به شباكان مطلان على المسجد الشريف (أي ساحة الحرم الشريف) من جهة الشمال وشباكان من جهة الشرق .

والاىوان الشرقي ، به ثلاثة قناطر على عمودين من الرخام وعلوها قميات من الزجاج الافرنجي في غاية البهجة والاتقان .

ويقابله الاىوان الغربي وبه شباك مطل على صحن المدرسة ، مفروش أرض جميع ذلك بالرخام الملون وحيطان ذلك مستدير عليها الرخام والسقف على جميع ذلك من الخشب المدهون بورق الذهب واللازورد وهو في غاية الاحكام والاتقان والارتفاع .

... وبالمدرسة المشار إليها من آلات البسط والقناديل ما هو في غاية الحسن مما لا يوجد في غيرها ، وعلى ظاهرها (أي سطحها الخارجي) الرصاص المحكم كظاهر المسجد الأقصى الشريف .

ومن أعظم محاسنها كونها في هذه البقعة الشريفة ولو بنيت في غير ذلك الحل لم يكن عليها الرونق الموجود عليها ببناؤها فإن الناس كانوا يقولون قديماً : مسجد بيت المقدس به جوهرتان هما قبة الجامع الأقصى وقبة الصخرة الشريفة .

قلت : وهذه المدرسة صارت جوهرة ثالثة فإنها من العجائب في حسن المنظر ولطف الهيئة والله موفق .
وقد امتازت المدرسة الأشرفية بغناها بالعناصر المعمارية والزخرفية حتى غدت متحفاً في تاريخ العمارة المملوكية في القدس (راجع ما كتب عن مميزات العمارة المملوكية سابقاً) ، حيث وضع المعماري المملوكي كل ما في جعبته من عناصر ، في مدخلها ، في مدخلها الرئيسي والسقيفة التي تتقدمه ، حيث اشتملت هذه العناصر على صفوف الحجارة المشهرة (الملونة باللونين الأحمر والأبيض المتتالية) والمقرنصات الركنية المزخرفة والصنج المعشقة واللوحات الرخامية المزخرفة بالزخارف النباتية والهندسية والشريط الكتابي الذي يشير إلى تاريخ عمارتها واسم مؤسسها حيث جاء فيه ما نصه :

« أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة الامام الأعظم والملك المكرم السلطان الملك الأشرف أبو النصر قيتباي عز نصره / وكان الفراغ من ذلك من شهر رجب سنة سبع وثمانين وثمانمائة » .

هذا ولم يقل مستوى العناصر المعمارية والزخرفية في الطابق الأول عنه في المدخل الرئيسي ، بل قل يزيد ، وحسبنا الوصف الذي قدمه مجير الدين لنا والذي ذكرناه أعلاه . ومن الجدير بالإشارة هنا إلى قيام أحد الباحثين بوضع تصور للطابق الأول معتمداً على ما وصف مجير الدين بالدرجة الأولى وعمائر السلطان قايتباي بالقاهرة^(٢٦) .

تاريخ المبنى :

يعود تاريخ عمارة المدرسة الأشرفية للمرة الأولى في عهد السلطان الملك الظاهر خشقدم (٨٦٥-٨٧٢ هجرية / ١٤٦١ - ١٤٦٧ ميلادية) ، وقد حال دون اتمامها وفاة السلطان خشقدم في سنة ٨٧٢ هجرية^(٢٧) .

هذا ولم يكن بناء المدرسة في هيئته الحالية، وإنما كان عادياً مثل معظم المدارس المملوكية في القدس .
وعندما زار السلطان الملك الأشرف قايتباي (٨٧٢ - ٩٠١ هجرية / ١٤٦٨ - ١٤٩٦ ميلادية)، القدس سنة ٨٨٠ هجرية والذي اشتهر بولعه بالعمارة والبناء، لم تعجبه هيئة المدرسة الخشقدمية، فأمر بهدمها وإعادة بنائها من جديد بوضع يتناسب وعظمة الحرم الشريف، حيث تم الفراغ من بنائها في سنة ٨٨٧ هجرية / ١٤٨٢ ميلادية، وذلك وفق ما جاء في الشريط الكتابي المذكور أعلاه .
هذا وقد أوقف على المدرسة الأشرفية وقوفات كثيرة^(٢٨)، اشتملت على أراض ومبان عديدة وذلك لتوفير المخصصات اللازمة للصرف عليها: فقد كان فيها ما يزيد عن (٢٢) وظيفة، فضلاً عن إيواء واطعام ثلاثين صوفياً دفعة واحدة. وقد لعبت المدرسة الأشرفية دوراً هاماً في تنشيط الحركة العلمية في الحرم الشريف، في الفترتين المملوكية والعثمانية^(٢٩). حيث اشتهر من مشايخها الشيخ شهاب الدين العميري الذي أقر على مشيختها سنة ٨٧٦ هجرية، وشيخ الإسلام الكمالي ابن أبي شريف الذي عين على مشيختها سنة ٨٨٠ هجرية بعد وفاة الشيخ العميري^(٣٠).

الحواشي والملاحظات (مآذن الحرم الشريف)

- (١) المقرنصات : وهي عدة قوصرات صغيرة فوق بعضها وينتقل المحور الرأسي في كل حطة بمقدار نصف مقرنص، ويسمى المقرنص حسب مصدره أو شكله، ويستخدم كعنصر معماري وإنشائي أيضاً (عن كتاب التراث المعماري الإسلامي للدكتور صالح لمعي).
- (٢) العارف (١٩٥٨)، ٢٠٣ - ٢٠٦.
- (٣) Mamluk Jerusalem (1987), 270-272.
- (٤) مجير الدين (١٩٧٣)، ج ٢، ٢٦.
- (٥) Mamluk Jerusalem (1987), 244-248.
- (٦) مجير الدين (١٩٧٣)، ج ٢، ٢٧.
- (٧) Van Berchem (1925), II, 123 - 127.
- (٨) Mamluk Jerusalem (1987), 178 - 183.
- (٩) مجير الدين (١٩٧٣)، ج ٢، ٢٧.
- (١٠) Van Berchem (1925), II, 123 - 124.
- (١١) Mamluk Jerusalem (1987), 415 - 418.
- (١٢) Van Berchem (1925), II, 134 - 136.

الحواشي والملاحظات (أروقة الحرم الشريف)

(١) خسرو، ٢٣.

(٢) Van Berchem (1925), II, 83.

(٣) مجير الدين (١٩٧٣)، ج٢، ٣٨ - ٤٠ / Mamluk Jerusalem (1987), 104, 154, 167, 211, 249, 308, 337, 368, 519, 526.

(٤) مجير الدين (١٩٧٣)، ج٢، ٤٠.

(٥) Mamluk Jerusalem (1987), 555, 579.

(٦) Van Berchem (1925), II, 82.

(٧) مجير الدين (١٩٧٣)، ج٢، ٣٨.

(٨) مجير الدين (١٩٧٣)، ج٢، ٣٨.

(٩) العسلي (١٩٨١)، ٢٣١ - ٢٣٢.

(١٠) العسلي (١٩٨١)، ٢٣١ - ٢٣٢.

(١١) مجير الدين (١٩٧٣)، ج٢، ٣٨ - ٣٩.

(١٢) العسلي (١٩٨١)، ٢٣٣.

(١٣) مجير الدين (١٩٧٣)، ج٢، ٢٦١.

(١٤) العسلي (١٩٨١)، ٢٣٤.

(١٥) العمري (١٩٢٤)، ١٤٨.

(١٦) مجير الدين (١٩٧٣)، ج٢، ٣٩.

(١٧) Mamluk Jerusalem (1987), 256.

(١٨) العسلي (١٩٨١)، ٢٣٦.

(١٩) العسلي (١٩٨١)، ٢٣٦.

(٢٠) العارف (١٩٦١)، ٢٤٦.

(٢١) Van Berchem (1925), II, 116.

(٢٢) Van Berchem (1925), II, 118.

(٢٣) Mamluk Jerusalem (1987), 193.

(٢٤) مجير الدين (١٩٧٣)، ج٢، ٣٥ - ٣٧ / Mamluk Jerusalem (1987), 192, 343, 356, 384, 544, 589.

(٢٥) مجير الدين (١٩٧٣)، ج٢، ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٢٦) AARP (1979), xv.

(٢٧) مجير الدين (١٩٧٣)، ج٢، ٢٨٤.

٢٨) العسلي (١٩٨١)، ١٥٩ - ١٦٢.

٢٩) العسلي (١٩٨١)، ١٦٧ - ١٧٢.

٣٠) مجير الدين (١٩٧٣)، ج ٢، ٣٣.